

التحرير والتنوير

وقريب من تمثيل هذه الآية ما في الصحيحين عن النبي A أنه قال " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " .

الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بدليل من مخلوقاته التي يشاهدها الناس مشاهدة متكررة فيكون قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) إلى قوله (إنما يتذكر أولوا الألباب) متصلا بقوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها) المتصل بقوله تعالى (خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار) ويكون ما بيناه من تمثيل حال نزول القرآن وانتفاع المؤمنين إدماجا في هذا الاستدلال .

وعلى كلا الوجهين أدمج في أثناء الكلام إيماء إلى إمكان إحياء الناس حياة ثانية . والكلام استفهام تقريرى والخطاب لكل من يصلح للخطاب فليس المراد به مخاطبا معينا . والرؤية بصرية .

وقوله (أنزل من السماء ماء) تقدم نظيره في قوله (وهو الذي أنزل من السماء ماء) في سورة الأنعام .

و (سلكه) أدخله أي جعله سالكا أي داخلا ففعل سلك هنا متعد وقد تقدم عند قوله تعالى (وسلك لكم فيها سبلا) في سورة طه وذكرنا هنالك أن فعل سلك يكون قاصرا ومتعديا وهذا الإدخال دليل ثان .

من لنا تفجر حتى) تعالى قوله في تقدم الماء من العين وهو ينبوع جمع (ينبوع) و A الأرض ينبوعا) في سورة الإسراء . وانتصب (ينبوع) على الحال من ضمير (ماء) . وتصيير الماء الداخل في الأرض ينبوع دليل ثالث على عظيم قدرة الله .

وعطف ب (ثم) قوله (ثم يخرج بها زراعا) لإفادة التراخي الترتيبي بحرف (ثم) كشأنها في عطف الجمل لأن إخراج الزرع من الأرض بعد إفعالها أوقع في نفوس الناس لأنه أقرب لأبصارهم وأنفع لعيشهم وإذ هو المقصود من المطر . وهذا الإخراج دليل رابع .

والألوان : جمع لون واللون : كيفية لائحة على ظاهر الجسم في الضوء وتقدم في سورة فاطر . واختلاف ألوان الزرع بالمعنى الأول أن لكل نوع من الزرع لونا ولنورها ألوانا ولكل صنف

من الزرع ألوان مختلفة في أطوار نباته وبلوغه أشده وهذا الاختلاف مع اتحاد الأرض التي تنبت فيها واتحاد الماء الذي نبت به آية خامسة على عظيم القدرة والانفراد بالتصرف . ومعنى (يهيج) يغلظ ويرتفع .

وحقيقة الهياج : ثورة الإنسان أو الحيوان ويستعار الهياج لشدة الشيء من غير الحيوان يقال : هاجت ريح ومنه هياج الزرع في الآلة لأن الزرع تطول سوقه وسنابله فيتم جفافه فإذا تحرك بمرور الريح عليه صار له حفيف وخشخشة سواء في ذلك الحب والكلاء وهذا الطور آية سادسة على الوجدانية .

والحطام : المحطوم أي المكسور المفتوت ووزن فعال " بضم الفاء " يدل على المفعول كالفتات والدقاق ومثله الفعالة وكالصباة والقلامة والقمامة . والمعنى : أنه يبلغ من اليبس إلى حد أن يتحطم ويتكسر بحك بعضه بعضا وتساقطه وكسر الريح إياه . وهذا الطور آية سابعة على قدرة الله .

وجميعها آيات على دقة صنعه وكيف أودع الأطوار الكثيرة في الشيء الواحد يخلف بعضها بعضا من طور وجوده إلى طور إضمحلاله .

وجملة (إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب) مبينة للاستفهام التقريري وفذلكة للأطوار المستفهم عنها فالإشارة بذلك إلى المذكور من الإنزال إلى آخر الأطوار